# البيئة الطبيعية وآثارها

تمهيد

نقل ابن خلدون تقسيم الأقاليم عن الشريف الإدريسى ، من كتابه الذى ألفه للملك رجار الثانى ملك صقلية فى منتصف القرن السادس الهجرى ، فقال إن نصف الأرض الشمالى سبعة أقاليم ، وهو النصف المعمور ، أما النصف الجنوبى فإن حرارته الشديدة وماءه الغامر يجعلان العمران فيه نادراً قليلا (١) .

وكان الإدريسى نفسه يعتقد أن النصف الجنوبى قفر خلىٌّ من الأناسىّ ، لشدة حرارته وإنعدام مائه ، لكن ابن رشد رأى غير هذا الرأى ، إذ قرر أن النصف الجنوبى كالشمالى فى طبيعته وسكانه وهبوط الحرارة فى بعض أنحائه ، فهى تهبط ما ابتعدنا عن خط الاستواء . ورأى ابن خلدون أن المشاهدة والأخبار المتواترة تدحض الرأى الذى يجرِّد من العمران خط الاستواء وما وراءه ، على أنه عمران قليل . ثم قال : وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل ، وأن ما وراءه فى الجنوب بمثابة ما وراءه من الشمال ، فيعمر منه ما عمر من هذا ، والذى قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين ، وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء فى الجنوب ؛ لأن العنصر المائى غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذى كان مقابله من الجهة الشمالية قابلا للتكوين ، ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه (٢)

---

(١) المقدمة ٣٧ (٢) المقدمة ٤٣

وإذا ما رجعنا إلى رأى الإدريسى ـ عمدة ابن خلدون فى الجغرافيا [١] . وجدناه يحدد هذه الأقاليم فى خريطته التى نشرها الأستاذ كونراد ميلر الألمانى ، فالإقليم الأول يبدأ من خط الاستواء إلى درجة ٢٣ شمالا ، والثانى من ٢٤ إلى ٢٩ ، والثالث من ٣٠ إلى ٣٥ ، والرابع من ٣٦ إلى ٤١ ، والخامس من ٤٢ إلى ٤٧ ، والسادس من ٤٨ إلى ٥٣ ، والسابع من ٥٤ إلى ٥٩

وإذْ كانت نظرية الإدريسى أن المعمور من نصف الكرة الشمالى ينتهى إلى درجة ٦٣ ، لأن ما بعدها شديد البرودة مغمور بالثلج غير صالح للحياة والعمران ، إذ كانت نظريته كذلك فقد أضاف إلى الإقليم السابع أربع درجات أخر ، وبهذا ينتهى نصف الأرض المعمور بدرجة ٦٣ شمالا .

وقد جارى ابن خلدون هذا التقسيم ، ورأى أن الإقليم الرابع — من ٣٦ إلى ٤١ درجة شمالا — أكثر الاقاليم اعتدالا ، وما على حِفافَيْه من من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال . ورأى أن الإقليم الثانى والسادس بعيدان من الاعتدال ، وأن الأول والسابع أكثر بعدا . فالأقاليم المعتدلة هى الثالث والرابع والخامس ( ٣٠ — ٤٧ شمالا ) على تفاوتها فى مقدار الاعتدال [٢] .

## أثر البيئة الطبيعية فى الجسوم

عرض ابن خلدون لتأثير البيئة الطبيعية فى الجسوم والعقول والأخلاق [٣] ، وذهب إلى أن سكان الأقاليم المعتدلة الثلاثة (أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق والهند والسند والصين والأندلس ومن

---

(١) المقدمة ٤٤ (٢) المقدمة ٤٣ — ٦٩ (٣) المقدمة إلى ١٠٧

قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونان ) أعدل أجساما وأصفى ألوانا [١] .

وقال إن سكان الأقاليم الحارة سود ، لأن الشمس تسامتُ رءوسهم مرتين متقاربتين فى كل سنة ، فتسفعهم بحرارتها وضوئها ، وتلوّح جلودهم بنارها . وقد أخطأ الذين عزوا سوادهم إلى دعوة جدهم نوح على أبيهم حام ، لأن فى هذا الكلام غفلة عن طبيعة الحر وأثرها فى الألوان وفى الحيوان [٢] .

وقال إن سكان الإقليمين السادس والسابع بيض البشرة ، لأن هواءهم بارد ، والشمس لا تتجاوز آفاقهم فى أوجها ، فيَضْعُف الحر ، ويشتد البرد عامة الفصول ، فتبيضُّ الألوان ، وتزرقُّ العيون ، وتَصْهَب الشعور ، وتَبْرَش الجلود ، لهذا قال ابن سينا فى أرجوزته .

بالزنج حر غيّر الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصَّقْلب اكتست البياضا حتى غدت جلودها بِضاضا [٣]

ورأى أن الناس الذين يعيشون فى إقليم قفر شحيح يقتاتون بالتافه من الطعام أقوى أبدانا من المترفين الناعمين ، فألوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وأحسن ، لأن كثرة الأغذية فى الحضر تخلف فى الجسم فضلات رديئة فاسدة ، ينشأ عنها انكساف اللون وذبوله ، وقبح الشكل وترهل الجسم . وهو يوضح رأيه ويدعمه بالموازنة بين حيوان القفر وحيوان الخصب ، بين الغزال والماعز ، والزرافة والبعير ، والمهاة والبقرة ،

---

(١) المقدمة ٧٠ (٢) المقدمة ٧١ (٣) المقدمة ٧١

ويقرر أن بينها بوْنا بعيداً فى صفاء أديمها ، وحسن رونقها ، وأشكالها ، وتناسب أعضائها ، وحدة مداركها .

لذلك يقرر أن الجوع أصلح للبدن ، وأدعى إلى صفاء العقول وصلاحها ، وأن الغذاء يشكل المتغذى به ، فالذين يتعاطون لحم الأنعام الضخام ينشئون ضخاما ، والذين يشربون ألبان الإبل ويأكلون لحومها أصبر على الشدائد وأقوى احتمالا الخ (١) .

**تعليق :**

نقف هنا وقفة قصيرة ، نناقش فيها ابن خلدون ، فنؤيده فى بعض ما ذهب إليه ونسايره ، ونخالفه فى بعضه ونغايره .

أما تأثير الجو فى تلوين البشرة فلا ريب فيه ، وقديما فرق الجو بين ألوان الناس ، فكان منهم الأبيض والأسود والأحمر والأصفر . وإن الأبيض ليسودُّ إذا ما أقام بإقليم حار وتعرض للهواجر ، وإن الأسود لتنصل فحمته قليلا جدا إذا ما أقام بإقليم معتدل أو بارد ، ولا جرم يظهر الأثر ويقوى كلما مرت السنون ، وتتابع البنون ، فتنتقل الألوان إلى الذرارى بالوراثة . فالسواد والبياض ، والحمرة والصفرة ، لم تكن ألوانا طبيعية فى الأصول الأولين الذين انحدرت منهم البشرية ، وإنما اكتسبوها من البيئة الطبيعية ، وصارت بتقادم الزمن صفة وراثية تنحدر من الأصول إلى الفروع .

وأما أن أجسام البادين أحسن اعتدالا وقواما ، وأنهم أصفى ألوانا

---

(١) المقدمة ٧٤ — ٧٧

من أهل الحضر . فإن هذا موضع نظر . حقيقة إن الغذاء قد يكثر فى الحواضر بحيث تتخم به المعد ، ويضخم منه الجسم فيقبح ، لكن ذلك قليل الحدوث . ولن ينكر أحد أن ألوان الحضر أصفى وأجمل من ألوان البدو ، وأن البدوى كثيراً ما يكون ذابل اللون ، ذاوى الجسم ، نحيل الجسد ، مَعروق العظم .

إن الحياة والقوة والنضارة لا تتجلى إلا فى المعيشة الرَّغْد ، والرزق الوَفْر ، والخيرات الكُثْر ، وهى من حظ الحضر لا من حظ البدو .

وأما أن الجوع أصلح للبدن ، وأدعى إلى صفاء العقول ، فذلك رأى صائب ، ولكن إلى حد ، فإن ابن خلدون يبدو لنا فى إيمانه بهذه الفكرة مُشْرَباً مذاهب المتصوفة ، فهو يعتقد أن فى قدرة الإنسان أن يستغنى عن الطعام شيئاً فشيئاً ، حتى لقد صدق أن امرأتين من الجزيرة الخضراء حبستا أنفسهما عن الأكل جملة سنوات [١] .

أرجح أنه كان متأثراً بآراء المتصوفة الذائعة فى عهده ، لأنها تغرق فى تعذيب الجسم وإنكاره ، وتذهب إلى أن الجوع يصفى الأرواح من أدران المادة ، ويعينها على اشتفاف الحقائق . وهو يشير إلى هذا التأثر بقوله : إن من عود نفسه الجوع والاستغناء عن الطعام بالتدريج والرياضة لا يهلك كما يفعل المتصوفة وأهل الرياضات [٢] . فإن أراد ابن خلدون من الجوع هذا الجوع المؤقت الذى لا يلذع الأحشاء ، ويشعر الجائع أن أحشاءه يأكل بعضها بعضاً ، فأنا معه . ومن الذى لا يستشعر من نفسه صفاء الفكر ، وسداد الرأى ، والشوق إلى العمل العقلى ، وانشراح الصدر ، ما دام شبه

---

(١) المقدمة ٧٦ (٢) المقدمة ٧٦

جائع؟ فإذا ملأ المعدة أحس بالكسل والثقل ، وعزف عن التفكير الهين اليسير . وإن أراد الجوع الصوفى الذى تتهالك فيه المعدة والأمعاء بعضها على بعض ، فيشعر الجائع أن فى حشاه أنياباً تعض وتنهش فلسنا معه . وأما أن الغذاء يشكل المتغذى به فصحيح ، إذ أن للأغذية آثاراً فى الجسم والعقل والخلق دعت بعض العلماء إلى جعلها مقياسا للحكم على الجماعات والأفراد . وقد دلت التجارب على أن تغيير الأغذية تغييراً خاصا يحدث تغييراً كبيراً فى الأمزجة ، ووجد أن لبعض الميول الإجرامية أو العادات المضرة بالمجتمع الناشئة عن بعض الأمزجة علاقة بنوع الطعام الذى يتناوله المجرم . ولحظ بعض الأطباء أن إطعام القتلة المجرمين نوعا خاصا من الطعام يخفف من أمزجتهم ، ويلطف من طباعهم . وأن تناول بعض العقاقير والأدوية على استمرار يؤدى إلى تغير محسوس فى الأمزجة ، وتقدم فى الأخلاق ، وبعد عن الإجرام [1] .

وليس معنى ذلك أن نوافق ابن خلدون على أن الذين يتعاطون ألبان الإبل ولحمانها أصبر على الشدائد ، وأضخم أجساما من الذين لا يتعاطونها ، لأن المشاهد ينكر ذلك ، فلا يفتقر إلى دفع .

على أن ابن خلدون أغفل بعض آثار الجو فى الجسوم ، كتأثيره فى حجمها وجرمها وسمكها وطولها وقصرها الخ . فسكان البلاد الباردة كالإسكيمو واللابلاند أقزام ، وسكان المناطق المعتدلة فارعة أجسامهم ، مكتنزة عضلاتهم .

---

(١) فى علم النفس ٣/٣٤٠

# أثرها فى العقول والحضارة

يقول إن الأقاليم المعتدلة الثلاثة مهد التفكير ، ومهبط الوحى ، ولم نعرف نبيا مبعوثا فى غيرها ، لأن الله تعالى اختص برسله أكرم خلقه . وإن هذه الأقاليم مهد العلوم والصناعات ، والافتنان فى الملابس والأقوات ، والتنافس فى الرَّفاهة ، وأهلوها يتعاملون بالنقدين النفيسين الذهب والفضة ، وفيهم وشجت أعراق المُلْك والنبوة وازدهر العلم والفن والصنعة . ويذهب إلى أن سكان الأقاليم البعيدة عن الاعتدال متأخرون فى الحضارة ، فهم يسكنون فى بيوت من الطين والقصب ، ويقتاتون بالذرة والعشب ، ويلبسون أوراق الشجر يخصفونها عليهم ، أو الجلود ، وأكثرهم عرايا . وهم متوحشون يأكل بعضهم بعضا كما نُقل عن السودان والصقالبة . وهم لايعرفون نبوة ولايدينون بشريعة ، إلا من قرب منهم من مناطق الاعتدال ، مثل الحبشة المجاورين لليمن ، فقد أخذوا عنهم النصرانية ، أو مثل أهل مالى وكوكو والتكرور المجاورين للمغرب فقد أخذوا عنهم الإسلام . . . . ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز فى الإقليم الأول والثانى ؛ لأن جزيرة العرب إحاطة بالبحار من جهاتها الثلاث خففت الرطوبة بعض حرها [٢] .

**تعليق :**

عمم ابن خلدون حكمه السابق ، فجرّه التعميم إلى خطأ تاريخى ، ذلك أنه حسب أن النصرانية قد انتقلت من اليمن إلى الحبشة ، والحقيقة غير ذلك ،

---

(١) المقدمة ٧٠ (٢) المقدمة ٧١

فقد وفدت المسيحية إلى اليمن من الحبشة ومن غيرها (١) ، ووجد أن اليمن — وهى ذات حضارة عظيمة قديمة — وغيرها من بلاد العرب قد أسهمت فى ميدان الحضارة ، وهى فى المنطقة الأولى والثانية ، فاحترز ، ونسب إلى البحر المحيط بها من ثلاث جهات تلطيفاً وتخفيفا .

على أن نظريته فى جملتها صحيحة ، لأن الحضارات بدأت كلها فى أقاليم معتدلة ، وعلى ضفاف الأنهار . وما من شك فى أن أمهات الحضارات الأولى : مصر وآشور وبابل والصين وشمالى الهند ، كلها فى المنطقة المعتدلة ، وقد ازدهرت حضاراتها على ضفاف النيل ودجلة والفرات والسند والنهر الأصفر ، ولم تنشأ الحضارات فى هذه البيئات المتماثلة إلا بعوامل يسرتها البيئة .

ذلك أن برودة الجو فى الأقاليم الشمالية أعجزت الإنسان عن الحصول على غذائه ، وعن التجربة والبحث لإبداع حضارة .

ولأن الأقاليم الحارة الجنوبية زاخرة بالحيوانات الضوارى ، وموبوءة بأمراض شتى تفتك بالإنسان والحيوان ، فلا سبيل إلى التفكير وإنشاء حضارة .

لهذا نشأت الحضارات فى المناطق المعتدلة أولا ، ثم تخطتها إلى مايجاورها من الأقاليم الباردة . فازدهرت الحضارة فى مصر والشام والعراق والصين

---

(١) Historyfo the Arabs, p. 67. by Hitti. والعرب قبل الإسلام ١٢٦ جرجى زيدان . والكامل لابن الأثير ١/١٤٩ وسيرة ابن هشام ١/٣٠ و The Back ground of islam. P. 112. Philby وتاريخ ابن خلدون ٢/٦١ ومعجم البلدان ٧/١٥٥ .

وشمالى الهند ، ثم فى بلاد اليونان وإيطاليا ، ثم فيما يصاقبهما شمالا .

ومما يعزز ذلك فى العصر الحديث أن الأوروبيين كشفوا عن أمريكا فى القرن الخامس عشر ، واستعمروها ، وانبثوا فى أنحائها . ونحن نعلم أن الأمريكتين تحيطان بخط الاستواء ، وأن فيهما أنواع المناخ والجواء . ولكننا نجد أن الحضارة والنشاط والإنتاج والنبوغ محصورة فى المناطق الباردة من أمريكا ، تتميز بها الولايات المتحدة وجنوبى كندا ، ونجد أن سكان الأقاليم الاستوائية من سلالة الأوروبيين متخلفون فى تفكيرهم وصناعتهم وحضارتهم ، وضعاف الأجسام والأخلاق . وما ذلك إلا من تأثير الجو من ناحية ، وانتشار الأمراض الطفيلية من ناحية .

على أن التجارب أثبتت أن الجو المعتدل والهواء اللطيف المنعش ينبهان أعصاب الحس ، وينشطان الدورة الدموية ، ويساعدان على الهضم والامتصاص ، ويحفزان إلى العمل والإنتاج .

أما الجو الحار الرطب فإنه يبعث على الخمول الجسمى والذهنى ، لأن حرارة الجو وحرارة الجسم تفتران الأعضاء وتخدران الأعصاب .

لهذا كان ابن خلدون على بعض الحق حينما عزا إلى الأقاليم الثلاثة أنها مهد الحضارة . وجانب الحق فى اعتقاده أن الحضارة لا تنشأ إلا فى هذه الأقاليم . وحسبنا الآن أن نكتفى برد عاجل على ما ذهب إليه مرجئين الرد الكامل إلى التعليق العام ، فنقول إن التفكير والترقى والتقدم من آثار الاجتماع فى أى إقليم صالح لبعث الحضارة ، سواء أكان من الأقاليم الثلاثة أم من غيرها ، لأن العلوم والصناعات تكثر وتجود حيث يطمئن الناس على حياتهم وعلى أرزاقهم ، ولأن العقل يبتكر ويفكر ويثمر حيث المجال

ميسر للاطلاع والابتداع والمران . وليس — أدل على ذلك من — أن الحضارة الحديثة تتزعمها شعوب لا تقيم فى المناطق الثلاث كما رأى ابن خلدون، لأنها خارجة على خط ٤٧ درجة شمالا ، كفرنسا وألمانيا والسويد وانجلترا .

## أثرها فى الأخلاق

١ — يقول إن الفرح والسرور ناشىء من انتشار الروح الحيوانى وتفشيه فى الجسم ، وإن الحزن ناشىء من انقباضه وتكاثفه .

ثم يقول إن الحرارة تفشى الهواء والبخار ، وتزيد مقداره . لهذا يحس السكران بالفرح لأنه يحس بالحرارة التى تبعثها سورة الخمر فى جسمه ، فيتفشى روحه الحيوانى ، ويفرح ، وكذلك نجد الذين يستحمون فى الحمامات ، فهم إذا تنفسوا فى هوائها ، واتصلت حرارة الهواء بأرواحهم شعروا بالسخونة ، فحدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم إلى الغناء الناشىء عن المسرة

ويبنى على ذلك أن سكان الإقليم الحار أسرع إلى الفرح والسرور من سكان الأقاليم المعتدلة ، وأكثر انبساطاً ، وأقرب إلى الطيش ، ولما كان السودانيون ساكنين فى الإقليم الحار ، واستولى الحر على أمزجتهم ، وفى أصل تكوينهم، كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً ، فتكون أكثر تفشياً ، فتكون أسرع فرحاً وسروراً ، وأكثر انبساطاً ، ويجىء الطيش على أثر هذه ،

وألحق بهؤلاء سكان الشطآن ، لأن هواءهم حار من أبخرة البحر

واستشهد على رأيه بأهل مصر ، فقال : « واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبة منها ، حيث غلب الفرح عليهم ، والخفة والغفلة عن العواقب ، حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم ، وعامة مآكلهم من أسواقهم »

وقال إن فاس متوغلة في التلول الباردة ، لذلك فإن أهلها مُفرِطون في نظر العواقب ، حتى إن الرجل يدخر قوت سنتين .

وأرجع الأخلاق إلى الجو وحده ، وذكر أن المسعودي حاول أن يعلل لخفة السودان وطيشهم وشيوع الطرب فيهم ، فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس والكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم ، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم ، وعقب على ذلك بقوله : « وهذا كلام لا محصل له ، ولا برهان فيه »[1] .

٣ — وقرر أن أخلاق البدو أسمى وأنبل من أخلاق الحضر ، لأنها لم تدنّس بعادة سيئة أو مشاهدة مذمومة مما يقع في المدن والقرى ، ثم لأنهم يعتمدون على نفوسهم في حفظ حياتهم ، مدفوعين بتفرقهم في القفار ، وتفردهم عن المجتمع ، وانقطاع الشرطة عنهم ، لا سور يحتجز الأعداء دونهم ، ولا جدار يطمئنهم على سلامتهم ، وإنما تحميهم أسنتهم ، وتقيهم يقظتهم « فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب ، ويتجافون عن الهجوع إلا غرارا ، في المجالس ، وعلى الرِّحال ، وفوق الأقتاب . ويتوجسون للنبآت والهيعات ، ويتفردون في القفر والبيداء ، مُدِلِّين ببأسهم واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية » أما أهل

---

(١) المقدمة ٧٣

الحضر فإنهم منكبون على الملاذ ، والترف ، ومقبلون على الدنيا ، وعاكفون على الشهوات ، حتى لقد تعرّوا من الحشمة . ثم إنهم يخضعون دائماً لذى سلطة ، وكثيراً ما يكون جباراً مستبداً ، يكسر من بأسهم . وكثيراً ما يعاقب على الجرائم ، وقبول العقاب مذلة ومذهب للبأس . وحتى الأحكام التأديبية التعليمية التى يؤخذ بها الصبى من صغره تربيه على الرهبة والمخافة . ويستدرك على ذلك بأن الصحابة قد خضعوا لحكم الشرع ولم ينقص بأسهم؛ لأنهم خضعوا لوازع نفسى لا لتأديب تعليمى أو قسرى ، والأحكام الشرعية مبنية على الوازع الدينى الذاتى لا على الوازع الخارجى السلطانى (١)

٣ — ويقرر أن البدو قد تعودوا الجوع ، وعزفوا عن اللذات ، وأنهم أعبد لله وأخشى من الحضر أهل الخصب والترف ، لأن من آثار الحضارة الافتنان فى الرفاهة أو الكلف بالنعيم ، والتأنق فى جميع المرافق ، وينشأ عن ذلك نَهَمٌ إلى اللذات ، وخضوع للشهوات ، وإسراف فى النفقات وعصيان لله .

٤ — وإذ عزا إلى البيئة الطبيعية هذه الآثار فقد اشترط فى المدن شرطين :

أما الأول فيدور حول الوقاية من الأضرار ، بأن تُسَوَّر ، وتُخْتَط فى مكان منيع كتل أو جزيرة ، ليصعب على العدو أن ينالها ، ولتبعد عنها المناقع والمروج المتعفنة ، والمياه الرواكد ، فلا يحمل الهواء جراثيم الأمراض إلى الإنسان والحيوان من مياه الماء الآسن .

وأما الثانى فيكفل اجتلاب المنافع ، وذلك بأن تكون المدينة على نهر

(١) المقدمة ١٠٣ — ١٠٧

أو قريبة من عين ثرة ، طيبة المرعى للسائمة ، دانية المزارع ، وذلك كله لتوفير الراحة لسكانها ، وتيسير حصولهم على حاجاتهم ، فيرتقى العمران [١] .

تعليق

١ — لا نصافح ابن خلدون على تعليله للفرح والحزن والطيش والحلم ، لأنه يقول إن الحرارة تسرى فى الروح ، وهذا كلام عام ، لا يقره العلم . وأقرب منه الى الصحة قول منتسكيو فى كتابه روح القوانين : إن الهواء البارد يقبض أطراف الأنسجة الخارجية ، فيزداد نشاطها ، ويساعد على رجوع الدم منها إلى القلب ، ويضعف تمدد هذه الأنسجة ، ويزيدها قوة . أما الهواء الحار فإنه يرخى أطرافها ويمددها ، فتضعف قوتها ونشاطها » [٢] . فهو يرى أن للهواء الحار أثراً غير الذى رآه ابن خلدون ، يرى أنه يمدد الأنسجة ويملؤها بالدم ، على حين رأى ابن خلدون أنه ينشر فى الجسم الروح الحيوانى .

ثم يقول منتسكيو « تتنبه أطراف الأعصاب فى البلاد الحارة ، لأن أنسجة الجلد تتمدد ، فتحملها الأمور التافهة على أشد العمل . أما فى البلاد الباردة فإن أنسجة الجلد تنقبض وتنكمش حلماتها ، وتبقى شعب الأطراف الصغيرة للأعصاب مشلولة إلى حد ما ، فلا يصل إلا حساس إلى المخ إلا إذا كان قويا جدا ، وصادراً من جميع الأعصاب . ولكن الخيال والذوق والشعور والنشاط تتوقف على عدد لانهاية له من الإحساسات الصغيرة » [٣] .

---

(١) المقدمة ٢٩١ — ٢٩٣

(٢) De l'Esprit Des lois. P. 389

(٣) الفصل السابق

فيعلل للخفة فى الأقاليم الحارة ، وللرزانة فى الأقاليم الباردة تعليلا مقبولا معقولا .

وقد استدل ابن خلدون على نظريته بالرجل الذى يسخن روحه الحيوانى فى الحمام فيغنى وينتشى ، واستدل منتسكيو بمثل آخر هو الرجل الذى تشتد عليه الحرارة فجأة ، فترتخى أنسجة جسمه ، فيضيق صدره ، وتكاد تختنق أنفاسه .

٢ — ونحن مع ابن خلدون فى أن البدو أنقى أخلاقا من الحضر ، وإن كانت حياة البادية المقفرة الضنك باعثا على السلب والنهب والقتل والتلصص والترصد . ولكن هذه ينابيع للفتوة والرجولة والشجاعة .

وهو على الحق أيضاً فى أن حياة الحضر فاسدة ، لأنها تضطر الناس إلى المغالبة فى الرزق ، والمجاهدة فى جمع المال ، سداً للحاجات واستكمالا للرفه ، فيكثر التحاسد والتعادى والغش ، والتحايل على المال من كل وجه . ثم إن الحضر سراع إلى الكذب ، والحنث فى الأيمان ، وأبعد عن الاحتشام وأقرب إلى الفسق واستباحة ما يأباه الدين والخلق الكريم .

وهم أيضاً أَهْيَبُ من البدو ، وأجزع وأهلع .

وعلى الجملة فإن الحضارة تجنى على الأخلاق ، بقدر ما ترهف العقول .

أما البادية فأهلها يقنعون بما نالوا ، ولا يطمعون فى رفاهة أو تأنق ، وهم مقتصدون فى لذاتهم وشهواتهم .

وليس أدل على ذلك من أن العالم فى القرن العشرين قد بلغ ذروة الحضارة والتفكير ، ولكنه كان يصعد إلى هذه الذروة ويتخفف من بعض فضائله ، حتى لنجد رذائل البدوى من غارة ونهب صغائر بالقياس إلى فظائع

الحضرى المعاصر . فالسلب فى البادية صار فى الحاضرة فتحا واستعمارا وإفسادا للضمائر والأخلاق ، والقتل بالسيف والرمح والنبل استحال فى الحاضرة قتلا بالمدفع والقنبلة ، وجرائم الأمراض ، وأخيرا بالقنبلة الذرية والهيدروجينية .

ولست أغلو إذ أقرر أن رذائل البادية قائمة كلها فى الحاضرة فى ثوبها الحقيقى أو زيها المستعار . بينما يتصف البدوى بفضائل لا يتصف بها الحضرى ، وإذا تحلى ببعضها أو بها كلها فإنه لا يُشْرَبها كما يُشْرَبها البدوى ، كالشجاعة والكرم والغيرة على النساء ، وحماية الجار ، وإغاثة اللهيف ، ونجدة المستصرخ ، والشمم والعزة ، والثقة بالله . . وكم فى الحاضرة من مستنجد لا يلبى ، ومنتصف لا يعان ، ومنكر لا يقاوم ، وعرض مثلوم لا يراق على جوانبه دم .

٣ — كسر ابن خلدون بحثه على آثار البيئة فى الجسوم والعقول والحضارات ، ولم يشر إلى أثرها فى الخيال وفى الأدب . وهى لاشك الينبوع الذى يستقى منه الأدباء معانيهم وأخيلتهم وكثيرا من موضوعاتهم .

والأمثلة كثيرة من أدباء أثرت بيئاتهم فى خيالهم وأفكارهم وأغراضهم وحياتهم .

فالشعر العربى فى الجاهلية رجع قوى للبيئة البدوية ، ومصور صادق لحياة العرب ، والشعر العباسى والأندلسى صَدًى للبيئة وللحياة إلى حد بعيد .

فذو الرمة مثلا شاعر كَلِفٌ بالبادية ، مفتونٌ فى استيحائها وتصويرها والحديث عما بها .

وابن خفاجة الشاعر الأندلسى كان يخرج إلى الفضاء ليتسمع خرير المياه

ويستمتع بمشاهد الطبيعة : من غيث ينسجم ، أو برق يومض ، أو جدول يترقرق ، وقد أثر هذا فى خياله وشعره أيما تأثير .

وكثير ممن كتبوا عن شكسبير عزوا نبوغه إلى نشأته الأولى على ضفاف نهر ( الأون ) الجميل ووادية الخصيب . حيث الشجر الملتف ، والزرع النضير ، وغابة ( أردان ) الساحرة .

ولقد بلغ من تأثره بهذه المجالى الرائعة أنه لم ينسها إذ نزح من ستراتفورد ، بل ذكرها وصورها ، وجلاها واستوحاها فى قصته ( كما تحب وترضى ) .

وأوليفر جولد سميث كان يحب لشوى مسقط رأسه ومدرج شبابه ، فلما أقام بلندن ظل يذكر الطاحون والجدول والكنيسة ، ومشاهد لشوى ، وشاد بها فى قصته ( الابرن ) . وواشنجتون إرفنج الكاتب الرحالة ينسب إلى نشأته على نهر أوتسون كل شىء فيقول : « إن ما كسبه طبعى المختلف العناصر من الخير والتهذيب يصح أن أرجعه إلى محبتى لهذا النهر فى صغرى ، فقد كنت فى الصبا أكسوه بعض الخصائص النفسية ، وأعتقد أن له روحا يقوم بها ، وأعجب بما فى طبعه من الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة ، لأنه ليس من الأنهار التى تبسم صفحاتها عن خداع . وتضمر الشر بما تحتها من شعاب مهلكة وصخور غدارة . . . وكنت أتخيل نوعا من المجد فى استقامته وسكينته » .

على أنا نعلم أن الناس مختلفون فى ميولهم ، وأمزجتهم ، وتقديرهم للأشياء ، وكثيراً ما يتألم شخص مما يبتهج به آخر . لكنهم جميعا خاضعون لتأثير البيئة الطبيعية على درجات متفاوتة .

٤ — وإذا كان ابن خلدون قد عزا إلى الحرارة نشر الروح الحيوانى فى الجسم، فتأخذه نشوة وخفة وطرب أو تهور ونزق، فما رأيه فى الإسكيمو — وهم يقطنون أبرد بقاع العالم — وإسراعهم إلى الطرب، وخفتهم إلى المرح؟

٥ — ومن الذى يوافقه على رأيه الجائر فى المصريين؟ لقد ذهب إلى أن المصرى سادر النظر عن العواقب، طائش، لا يدخر قوت شهر فى بيته. والحق إن المصرى ليس أسرع انفعالا من الفرنسى أو الإيطالى، وفرنسا وإيطاليا فى إقليم لم ينسب إليه ابن خلدون خفة ولا نزقا. والحق إن المصرى حريص على ادخار قوته، ويكاد يكون الادخار عادة متأصلة عامة فى مصر.

وإذا كان ابن خلدون قد قسا على المصريين هذه القسوة، فإنه قد كتب ذلك قبل أن يفد إلى مصر ويخبر أحوالها، ولعله غيره فى نسخة لم تصل إلينا، أو لعله أبقاه، لأن حياته فى مصر كانت شائكة، فلم يشعر نحو المصريين بحب.

على أن تلميذه المقريزى قد حاكاه فى قسوته، إذ نسب إلى البيئة المصرية بعث الجبن والضعف والاستسلام، واستدل على ذلك بخلو مصر من الأسود. كأن الأسود إذا وجدت فى بلد ألقت فى نفوس أهليه من شجاعتها، وأن كل وطن لا آساد فيه مقر للجبن والهلع.

يقول: «هواء مصر وماؤها رديئان، وجوها كثير التقلب، وكل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مصر فى سخافة الأبدان، وضعف القوى، وكثرة التغير، وسرعة الوقوع فى الأمراض.

والمصريون قليلو الصبر والجلد ، تغلب عليهم الدعة والجبن والقنوط والشح والخوف والحسد والنميمة والكذب . . . ومن أجل ذلك لا تسكنها الأسود ، وإذا دخلتها ذلت ولم تتناسل . وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها »[1] .

ومن أسف أن هذه الدعاوى تسللت إلى بعض المصريين فثبطت عزائمهم وجنت على ثقتهم فى أنفسهم .

ولا شك أن المصرى شجاع ، وقد سجل جرأته وبسالته فى مواطن شتى ، فى عهد صلاح الدين ومحمد على ، بله فى عهود الفراعنة . ونهضة مصر الأخيرة تدحض هذه الدعاوى ، فقد تفوق المصريون فى العلوم والفنون والصناعات ، ومارسوا أعمالا جساما تتطلب حصافة فكر وسداد رأى وبعد نظر .

## تعليق عام على آرائه

### فى البيئة الطبيعية

١ — منذ عصر بعيد أدرك المفكرون العلاقة بين المناخ والأخلاق ، فلم يكن ابن خلدون ولا منتسكيو أول من أدرك هذه العلاقة . ذلك أن كثيراً من المفكرين سبقوهما ، مثل ( برمنيدس ) و ( امبدوكليس ) و ( جالينوس ) و ( بقراط ) ، وقد اقتفى بقراط رأى امبدوكليس فى أن اختلاط العناصر الأربعة : الهواء والماء والنار والتراب ، على نظام خاص ينتج كائناً ذا صفات خاصة ، وزاد عليه أن الأجسام تتشكل وتتصف بصفات

(١) المواعظ والاعتبار ١ / ٤٢ — ٤٥

أربع هى البرودة والحرارة والرطوبة والجفاف ، وعن هذه الصفات مثنى مثنى تنشأ السوائل الأربعة . وهذه السوائل تتأثر بالغذاء وبالجو . وليس تأثير الجو فيها مقصوراً على اختلاف أقاليمها ، بل إنه يتغاير فى الإقليم الواحد تبعاً لفصول السنة[1] . ثم لحظ أرسطو أثر البيئة فى إنظم المدن السياسية .

على أن الجاحظ أشار فى كتابه الحيوان ، وفى بعض رسائله إلى تأثير البيئة فى جسم الإنسان وفى أخلاقه ، وكذلك أشار ابن سينا فى أرجوزته التى نقل منها ابن خلدون بيتين استشهد بهما فى تعليله لسواد السودان ، ولكن هؤلاء وأولئك لم يؤصِّلوا نظرية ، أو يفصلوا فكرة ، أو يستنتجوا نتائج .

أما ابن خلدون فإنه قد أصَّل وفصَّل واستنتج ، وتَفَهَّم التاريخ على ضوء نظريته فى البيئة الطبيعية وفى البيئة الاجتماعية ، فهو إذاً صاحب النظرية ومخترع الفكرة .

ولئن كان قد وقف قسطاً عظيما من مقدمته على آثار البيئة الطبيعية فى الجسم والعقل والخلق ونُظُم المجتمع وآرائه وعاداته لقد وقف من بعده العلامة منتسكيو قسطاً عظيما من كتابه ( روح القوانين ) لبيان هذا التأثير ، مثل ( تأثير الموقع الجغرافى فى القوانين ) و ( تأثير الجو الجغرافى فى بلاد الشرق فى الدين والعادات ) و ( تأثير الجو فى نظام الحكومات الملكية ) و ( أثر جو انجلترا فى نفسيات سكانها ) و ( علاقة الجو بنظام الرق )

---

(١) فى علم النفس ٣ / ٣٢٧

و ( علاقة التربة بمدنية السكان ) و ( تأثير طبيعة الأرض فى القانون المدنى )[1] الخ .

٢ — وإذا كان ابن خلدون ومنتسكيو قد أصّلا النظرية وفصّلا القول ، فإنهما نسبا إلى البيئة الطبيعية أكثر مما لها من آثار ، فهى فى رأيهما التى تقدر مستقبل الفرد من النواحى الجسمية والعقلية والخلقية ، فينفذ ما قدرت ، وتدبر حالة المجتمع من الناحية الاقتصادية والسياسية فيتم ما قضت به . ولكن فى هذا التقدير للبيئة الطبيعية سخاء ، وإغفالا للمؤثرات الأخرى ، ولجهد الإنسان نفسه .

فليست البيئة الطبيعية إلا أحد المؤثرات فى حياة الفرد والجماعة ، فالأسرة والمعلمون والمجتمع والعلوم والأديان ، والبيئة الاجتماعية بنظمها الاقتصادية والسياسية ، والوارثة والميول ، كل هذه مؤثرات فى حياة الفرد وفى حياة المجتمع .

ثم إن الأفراد والجماعات كثيراً ما يتذرعون بالعلم والصناعة والحيلة والتجربة فيقاومون البيئة ، ويخضعونها ، ويصرّفونها كما يشاءون ، وبذلك يتحللون من تأثيرها ، ويؤثرون فيها ، كأن يقى الناس أنفسهم من الحر ومن البرد بوسائل شتى ، أو يُنبِتوا فى الأرض الجدبة ما لذ وطاب من الحب والفاكهة . ونحن نرى فى العصر الحاضر أن وسائل العلم والاختراع تساعد أيما مساعدة على مقاومة البيئة ونقض أحكامها ، ففى الجزيرة العربية مثلا سيارات وطيارات وثلاجات ومراوح ومكيفات للهواء ، وهذه وغيرها من جنود التغلب على البيئة أو مقاومتها وتخفيف تأثيرها

---

(١) De l'Esprit Des Lois, Montesquieu.

والإنسان الراقى ما زال يخضع البيئة ويشكلها بما يلائمه ، فالأوروبى الذى يقطن فى المناطق الحارة يتقى مسكنه على جبل أو تل ليعيش فى جو ألطف ، والإنسان الذى يقيم فى الصحراء يضرب حوله نطاقا من الزرع والشجر . وكثيراً ما قاوم الناس الجو والزرع والحيوان والبحر والجبل والصحراء والنهر ، فاتخذوا من الريح والبخار والماء قوى ، وهم يحاولون الآن أن يتخذوها من الشمس ، وأن يختزنوا حرارتها ، وهم يكتسحون بعض الغابات ويزرعون أماكنها كما حدث فى غربى أوروبا وفى كندا وشرقى الولايات المتحدة .

والإنسان يغالب البحر الطاغى على اليابس ، فيجفف البحيرات والمناقع ، ويتخذ منها مزارع ، كما حدث فى بحيرة لنكولن فى شرقى انجلترا ، وفى شواطىء نيوزيلندة ، وفى الفيوم ، وكما سيحدث فى بحيرة مريوط وأدكو والمنزلة والبرلس .

ولقد صدق المويلحى إذ قال فى كتابه عيسى بن هشام يصف الغربيين أهل الغرب يطوون البر والبحر ، ويقطعون الحَزْن والوعر ، ويطيرون فى السماء ، ويمشون على الماء ، ويخرقون الجبال ، وينسفون التلال ، ويقلبون الآكام وهادا ، ويبسطون الربا مهادا ، ويحيلون القفار بحاراً ، ويحيلون البحار بخاراً ، ويحمدون الهواء ، وينبتون الحصباء ، ويستحدثون الأنواء ، فكأنهم جن سليمان ، فى هذا الزمان »[1] .

٣ — وقد اختلف ابن خلدون ومونتسكيو فى النتائج التى انتهيا إليها وخالفا أرسطو فيما كان قد تهدّى إليه . وهذا دليل على أن البيئة الطبيعية

(١) حديث عيسى بن هشام

ليست كل شيء . فأرسطو كان يرى أن الشعب اليونانى هو أستاذ الحضارة والعلم ، وأن العالم كله مدين له ؛ وأن سكان أوروبا شجعان جداً ولكنهم غير أذكياء ، وأن الشعوب الآسيوية مفرطة الذكاء ولكن تعوزها الشجاعة. أما الشعب اليونانى فإنه بين آسيا وأوروبا الغربية فهو يشغل الوسط (١) ولذلك يتصف بالذكاء والشجاعة معاً .

وابن خلدون يرى أن سكان العراق والشام ومصر هم المتفوقون على العالم ؛ لأن بيئتهم خير البيئات ، كما سبق .

ومونتسكيو يرى فى الأمم الشمالية المثل الأعلى .

فكل من الثلاثة متأثر بعصره وبأمته ، ينظر إليها راقية رائدة ، فينسب رقيها إلى البيئة الطبيعية ، وينسى أن الحضارة الإنسانية دُولٌ بين الناس . فقد سبقت الحضارة المصرية الفرعونية والحضارة الآشورية والبابلية حضارة اليونان ، وسبقت الحضارة العربية حضارة أوروبا الحديثة وأثرت فيها . إذا فليست البيئة الطبيعية هى الخلّاقة للحضارات كما أشار أرسطو ، وكما فصّل ابن خلدون ، وكما زاد التفصيل مونتسكيو .

٤ — وكثير من المحدثين لا ينسبون إلى البيئة الطبيعية كل الآثار ، ويعزون تباين الناس فى أخلاقهم وأمزجتهم إلى عوامل أخرى .

فمن المحدثين من ذهب إلى أن الأخلاق والأمزجة ناشئة من تغيرات جسمية تؤثر فى المخ والمجموع العصبى ، وعن تأثيرها تنتج مظاهر الشعور مختلفة فى الأفراد كاختلاف هذه التغيرات .

---

(١) السياسة . الكتاب الرابع الفصل السادس وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية ٧٤ الدكتور طه حسين

ومنهم من أرجعها إلى آثار السوائل التى تفرزها الغدد الصماء فتختلط بالدم ، وتنبعث إلى الجسم كله ، فتنشطه أو تخمده ، وتهدىء العصب أو تثيره . وأولى هذه الغدد الغدة الدرقية .

وقلة من المحدثين رأوا رأى القدامى أن للمناخ تأثيراً كبيراً فى الأخلاق ، متأثرين بما يشهدون من تباين الأخلاق فى الأقاليم ، زاعمين أن من ينتقل من مناخ إلى آخر يكسب مزاجا غير مزاجه الأول . لكن هذا رأى مردود ، لأن التغير ناشىء من سبب آخر كتبدل الحالة الصحية ، أو التقدم فى السن .

وقد ذهب ( رودلف هرمان لوتز Rudolf Herman Lotze ) الفيلسوف الألمانى إلى أن للسن أثراً عظيما فى المزاج ، فلكل مرحلة من مراحل العمر مزاجها ، للطفولة مزاج له خصائصه ، وللشباب آخر له ظواهره ، وللرجولة مزاج له ميزاته ، وللشيخوخة مزاج له سماته .

والحق إنه من المتعذر أن نخضع التباين فى الأخلاق والأمزجة إلى مؤثر واحد . ومن الخطل أن نسم شخصاً بأنه ذو خلق ثابت أو مزاج موحد ، بينما هو لا يستقر على حال ، يثور آنا ويهدأ آنا ، يتفاءل تارة ويتشاءم تارة ، يغضب حينا ويحلم حينا . لذلك يقول الأستاذ ( ثاولس Thouless ) : لا شك أنه من الضرورى أن نعدل آراء القدماء فى أوصاف الأمزجة ، لكى نعلم أن الشخص الواحد قد تظهر عليه آثار أمزجة مختلفة فى أوقات متعددة .

ويقول الأستاذ ( مَكَّنْ John Maccunn ) : « إذا حللنا المزاج وجدناه مؤلفا من عناصر متعددة ، وإنا لنضل إذا حاولنا أن نرجع المزاج إلى

عنصر واحد من كياننا العقلى أو الجسمى دون غيره » .

ويقول الأستاذ ( مكدوجل Mcdougall ) « نستطيع أن نعرف المزاج بأنه مجموعة الآثار التى تحدثها فى الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكيميائية التى تحدث فى أنسجة الجسم باستمرار . . . والمزاج كما رأى القدماء يرجع على الأخص إلى التكوين الجسمى ، ولكن هناك عوامل أخرى أيضاً »(١) .

٥ — لن ننسب إلى الجو وحده تباين الأخلاق والأمزجة ، غافلين عن الحال الجسمية من صحة أو مرض ، فإن سوء الهضم ، ومرض النقرس ، ومرض السكر مثلا تثير الغضب . ثم لن نغفل عن تأثير الإفراز الداخلى وتدرج السن ونوع الغذاء .

ونريد أن نعلم الحقيقة فى آراء الذين ينسبون إلى البيئة الطبيعية هذه الآثار الخطيرة ، ونعرف مقدار مافيها من صواب ، ولنا أن نشك فيها أول الأمر ، لأن القائلين بها مختلفون فى تطبيقها ، متأثرون بما رأوا فى عهودهم . فلقد اتهم أرسطو شعور أوروبا بالغباء ، وأضفى على شعوب آسيا الذكاء ، وأضاف إلى الأولين الجرأة والبسالة ، وسلبها الآخرين ، ثم نسب إلى شعبه اليونانى الفضيلتين معاً : الذكاء والشجاعة .

وابن خلدون رأى الحضارة فى عصره ومن قبله قد أينعت فى الشام والعراق ، فجعل الإقليم الرابع مثله الأعلى .

ومنتسكيو بهرته حضارة الأمم الشمالية فاعتدها مثله الأعلى .

إن من حقنا أن نرتاب فى هذه الآراء وأن نبالغ فى الارتياب ، ماداموا هم أنفسهم قد تباينوا فى نشدان المثل الأعلى .

---

(١) فى علم النفس ٣/٣٣٩

ونحن نعلم أن آخر درجة فى نطاق الإقليم الرابع — موطن الحضارة عند ابن خلدون — هى الدرجة السابعة والأربعون شمالا ، ولكننا نجد فرنسا تبدأ من الخامسة والأربعين تقريباً ، وأن شماليها وهو خارج كله عن نطاق ابن خلدون أروع مدنية من جنوبيها .

ونجد انجلترا تبدأ بعد نطاق ابن خلدون . وهى كلها خارجة عنه . ومثلها ألمانيا ، والسويد . وإذاً فإن الحضارة تزدهر وتنضج ، والعقول تخصب وتنتج ، والعلوم تحيا وتبتدع ، والصناعات تبتكر وتخترع ، والأدب يخضَلّ ويزهو ويثمر ، فى أقاليم جردها ابن خلدون من ميزات الترقى والنهوض .

٦ — وليس أبلغ فى الدلالة على أن مثل آراء ابن خلدون ومنتسكيو فى البيئة الطبيعية وقتية من أن العالم الحديث لم يَسْلم من مذاهب فى البيئة والحضارة جائرة أيما جور . وربما كان أول داعية إلى هذه الفكرة يقيم عليها نظريته فى التفريق والأجناس ( ماكس مولر ) اللغوى الأديب المتفلسف . فقد استنتج من دراسته اللغوية أن هناك أجناساً سماها الهندية الجرمانية ، أو الآرية ، وذهب إلى أنها كانت فيما مضى جنساً واحداً ، وهؤلاء هم الصفوة الممتازة من البشر الذين تميزوا بالتفكير والإبداع والسيادة .

وقد عاصره سياسى فرنسى هو الكونت دى ( جوبينو ) فدعا إلى نظرية الأجناس ، ونشرها سنة ١٨٥٣ . وموجز نظريته أن المخلوقات كلها تخضع لقانون طبيعى أزلى يميز بعضها من بعض . ففى الحيوان نرى الخيول العربية مثلا أفضل من غيرها ، وفى النبات نرى الورد الجُورىّ ذا رائحة أزكى من غيره ، وفى الجماد نجد الفولاذ أقوى وأمتن ، وكذلك الإنسان ،

فإنما نجد عدد النابغين يكثر فى شعب دون آخر ، والشعب الذى يكثر النابغون فيه شعب ممتاز ، فمن حقه أن يسيطر على غيره .

ثم يخلص بعد ذلك إلى أن الأمم الشمالية ذات البشرة البيضاء سباقة إلى المدنية والرقى ، على أنها ليست كلها سواء ، فالعظمة محصورة فى العنصر الآرى وحده ، أما الساميون فلا يمتازون بشىء ؛ لأنهم أحط من أن يصلوا إلى مستوى العنصر الآرى .

ثم غلا ( شمبرلن ) فى تعميم هذه البدعة ، وتعصب للجرمانية ، حتى لقد رأى أنه من المحال على غير الجرمانى أن ينبغ ، وإذا كان قد نبغ أشخاص لا ينتمون إلى الجرمانية بنسب صريح فإنهم ينتمون إليها بعرق خفى .

ومنذ أعوام كانت تتجاوب فى ألمانيا وشمالى أمريكا صيحات بأن الجنس التيوتونى أو الشمالى أرقى الأجناس ، وأن الحضارة بلغت شأوها فى بلاده . وكان من الغلاة فى هذا المذهب العلامة النفسى الشهير مكدوجل .

ولم ننس بعد أن ألمانيا الهتلرية كانت مغرقة فى تعصبها للجرمانية ، حتى لقد طردت اليهود من بلادها ، وأبغضت الساميين ، وازدرت الشرقيين ، وزعمت أنهم غير جديرين بالحرية والاستقلال ؛ لأنهم فى أشد الحاجة إلى الخضوع للشعوب الآرية .

وكان هتلر وأنصاره يدينون بأن أنبل خصائص الإنسانية أصيلة فى الجنس الجرمانى ، وأن الساميين الشرقيين لم يكن لهم نصيب فى ترقية العالم ، وأنهم لن يستطيعوا أن ينهضوا به ، فإذا ماكذبتهم نهضة اليابان — وهى أمة شرقية — ادعوا أنها أمة مقلدة ليست لها سمات خاصة فى حضارتها ، فهى تحاكى الغرب ولا تبتكر .

فى حين أن عالما أمريكيا هو (اليوسث هنتنجتن) يرى أن أنسب الجواد للنهوض والابتكار جو بريطانيا واليابان ، وأن الأقاليم الأخرى تصلح للترقى والنهوض بنسبة شبهها بهذا الجو .

ولو أن هؤلاء جميعاً أنصفوا لسألوا أنفسهم : لماذا لا يحدث تغيير البيئة آثاراً فى عقلية المنتقل من إقليم إلى آخر ؟

وإذا كان هذا التغير يحدث بعد زمان طويل فإنه برهان على أن هناك عوامل أخرى مشفوعة إلى البيئة الطبيعية .

ومن يدرى ماذا يحجب الغيب ؟

فقد ترحل الحضارة من عالمها الحالى إلى إقليم آخر جرده هؤلاء جميعاً من صفات الترقى والنهوض ، فيظهر عالم يتأثر بما يشهد ، وينسى أو يتناسى ماضى الأمم ، فيقرر أن مناخ هذا الإقليم أصلح مكان للرقى والنهوض .